الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الكلية :الآداب واللغات

القسم: اللغة والآداب العربي

عنوان الليسانس: الأدب العربي **الشعبة: دراسات أدبية**

التخصص: أدب عربي

السنة الثالثة

السداسي :الخامس

المادة : جماليات السرد العربي القديم

محاضرات في مقياس:
جماليات السرد العربي القديم

الأستاذة: دربالي وهيبة.

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

السنة الجامعية-2021-2022

عنوان المحاضرة : السرد في أدب الرحلة

مماهو معلوم أن الرحلة فيها مشقة في السفر والانتقال من مكان إلى آخر لتحقيق غايات دينية أو علمية أو تجارية أو للمتعة ،ولقد ظهرت الرحلة منذ القديم ،ولكن تدوين الرحلات في أدبنا العربي جاء متأخرًا ، وتضمنت نصوص الرحلة تقنيات سردية ظهرت من خلال قصص وحكايات وأخبار متنوعة .

1-مفهوم أدب الرحلة:

في البداية سنأخذ مفهوم الرحلة في اللغة ثم نتعرض لمفهوم مصطلح أدب الرحلة .

أ-تعريف الرحلة لغة :

جاء في لسان العرب مفهوم الرحلة بالمعاني اللغوية التالية :«انتهينا إلى رحالنا؛أي منازلنا، والارتحال:الانتقال وهو الرُّحلة والرِّحلة ، والرحلة اسم للارتحال :للمسير،ويقال :رحل الرجلُ إذا سار ، والرَّحل والرَّحالة من مراكب الرجال دون النساء».

ومنه فمعنى الرحلة في اللغة المنزل والمسكن ،والرحالة هم موكب سير من الرجال فقط دون النساء ،والرحلة هي السفر والانتقال من مكان إلى آخر ،وهذا هو معنى الرحلة الذي نبحث عنه .

ب-تعريف أدب الرحلة:

يُطلق مصطلح أدب الرحلة على مجموع الكتابات ذات علاقة بحدث الرحلة وأهدافها، والمعنى الذي يلصق بها،ونصوص الرحلات ذات طبيعة وأشكال مختلفة ،وكما أن موضوعاتها متنوعة».

دخل أدب الرحلة في مجال فنون الأدب؛لأن الرحالة ينفعل ويتأثر ويصف كل ماشاهده من أماكن في نصه بأسلوب أدبي جميل ، فيصور لنا ذلك من خلال عمله الأدبي،وهنا نشير إلى أن النص الرحلي تتجاذبه علوم ومجالات كثيرة مثل:الأدب وعلم الجغرافيا والتاريخ والفلسفة«ويشتمل أدب الرحلة على مجمل الكتابات ذات العلاقة مع القيام برحلة ،عبارة لاتبدو منطقية إلا من حيث الظاهر ،ذلك لأن تجربة الرحلة وأهدافها ،والمعنى الذي يعطي لها ،سمح بظهور نتاج غزير ،وهكذا فإن نصوصًا مختلفة الأشكال والطبيعة تلتقي في موضوعاتية».

ومنه فأدب الرحلة هو كتابات أدبية موضوعها السفر والتنقل من مكان إلى آخر ، والنص الرحلي اختزل تجارب الرحالة العاطفية والاجتماعية ، ويُعبر فيه الأديب الرحالة عن وجهة نظره.

2-نشأة أدب الرحلة وتطوره :

حصل تدوين الرحلات في وقت متأخر ،وظهرت على إثر ذلك كتب متخصصة في هذا المجال «ومن بين أقدم كتب الرحلات هي التي قام أصحابها بتناول تصوير حياة الشعوب،ونقد أحوالها الاجتماعية، ولقد ظهرت بدايات الرحلات العربية قبيل عصر صدر الإسلام ،وتوالت الرحلات فيما بعد ،ونجد أثر الرحلات في كتب الكثيرين من نوابغ القرن الرابع الهجري أمثال الفقيه الهمذاني والمقدسي والمسعودي، ووردت سابقة عريقة في تدوين الرحلات عند ابن الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي (ت528هـ)قبل وفاة ابن جبير(ت614هـ) وعبد اللطيف البغدادي (ت629هـ) وابن بطوطة (ت779هـ) ومن المعروف أن القاضي أبا بكر بن العربي المعافري (ت543هـ)هو أول من وضع الأساس لهذا الفن ، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير، وكتب الرحلات تبدأ برحلة ابن جبير،وتلاه فيما بعد بحوالي قرنين ابن بطوطة ليقدم في ظروف خاصة نمطًا جديدًا من الرحلات عن سابقه ابن جبير في أنه نحا منحى الغرائب والخرافات في رحلته».

تعد رحلة ابن جبير فاتحة الكتابة في الرحلات الأدبية ذات الأحداث الواقعية ،وجاء بعده ابن بطوطة وحاكاه في أسلوبه مع ميله نحو السرد الخرافي ،ونالت رحلات ابن جبير وابن بطوطة شهرة واسعة لما شملته من معارف دينية وأدبية وعلمية ...الخ «ومع نهاية القرن الخامس الهجري واصل فن الرحلة بالأندلس مسيرته التطورية ،فعرفت نهاية هذا القرن أبا حامد الغرناطي في كتابيه تحفة الألباب والمعرب"،وأبا الحسن علي بن سعيد الغرناطي،وقد احتوت كتب هؤلاء الرحالة والجغرافيين على مادة ثرية ومثيرة للدهشة ...أين كان لهذا الأدب الرحالاتي دور كبير في خدمة الإسلام واللغة العربية،وتنشيط الفكر والخيال ،وتحفيز الهمم على السفر والتجارة ونقل المعارف والعلوم،الأمر الذي كان له أثره في تحرير صفحات عديدة من صفحات الحضارة العربية الإسلامية».

شكل القرن الخامس الهجري البداية الفعلية للكتابة في مجال فن الرحلات،وظهرت كتب متخصصة في مجال الرحلات وبعدما كانت نصوص الرحلات تدرج ضمن مجالات كالجغرافيا مثلًا أصبحت فيما بعد ضمن فنون الأدب العربي ،وذلك لما تضمنته نصوص الرحلة من شعرية أدبية كان لها أثر في تطوير اللغة العربية ونشر الإسلام بطريقة غير مباشرة ،ودعوة القارئ للتأمل في أجواء الرحلة، ولذلك «أصبح من غير الممكن الحديث عن أدب الرحلة دون استحضار جهود ابن بطوطة وابن جبير والعبدري وغيرهم كثير ،وإذا كان ابن بطوطة قد شكل الحلقة المتميزة في الرحلات لما تميزت به رحلته من خصوصيات واتساع على مستوى الفضاءات، التي عبرها وأجاد في وصفها،وما تضمنته من تقاطع بين الواقع والتخييل،فإن النماذج الأخرى لاتقل أهمية عن رحلة ابن بطوطة وتتقاطع معها في موضوعات وصفية وسردية متعددة».

نلاحظ أن موضوع الرحلات متعدد ، وهو سرد الأخبار والأحداث الاجتماعية والتاريخية على نطاق واسع ،ويقع التفاوت بين الأدباء في طرق سردهم لتلك الأخبار والقصص على نحو أدبي «والقرن الرابع عشر هو القرن الذي بلغت فيه رحلات أقصى غايتها ،من حيث الغنى ومن حيث الاتساع ،ففي هذا القرن ارتحل ابن بطوطة من غرب افريقية إلى شرق آسية ».

اتسع مجال الرحلات في عصر ابن بطوطة ، وزادت اهتمامات الأدباء في جمع معلومات حول مختلف الشعوب في العالم ، وإن كانت الرحلة فن أدبي مستحدث ،فإنها نافست فنون الأدب الأخرى من قصص ومقامات،وتهافت الأدباء لتدوين رحلاتهم أو جمع رحلات الأدباء«وكتابات الرحالة المسلمين تزخر بالقصص والحكايات الشعبية ،كما تنقل لنا الكثير من الأساطير علاوة على الغرائب والطرائف، والثابت أن ماذكر من أساطير أو عجائب، ومعتقدات في كتابات بعض المؤرخين مثل المسعودي والقزويني يرد أصلًا إلى كتب الرحالة ورواياتهم ».

يعد النص الرحلي مثير للدهشة بفضل ماحتواه من أخبار حول الأساطير والعجائب بالإضافة إلى المواضيع الاجتماعية والسياسية والثقافية،وقد يُورد الرحالة فيه طرائف ونوادر«وفي القرن الخامس الهجري تقريبًا ، وهنا بدأت معالم التدهور تصيب كافة مجالات الحياة بما في ذلك الرحلات، التي خبًا نشاطها تدريجيًا،وهزلت مادتها فيما عدا بعض الاستثناءات، التي نذكر من بينها رحلات أبي عبد الله اللواتي الشهير بابن بطوطة، والمؤرخ الرحالة عبد الرحمن بن خلدون ».

كما نعلم أن عصر الانحطاط رافقه جمود في جميع المجالات الأدبية عدا مجال فن الرحلة، فظهرت كتب من قبيل رحلات ابن جبير وابن بطوطة وابن خلدون والمسعودي ...الخ، وهي رحلات أدبية على مستوى فني رفيع «فن الرحلة أو الأدب الجغرافي،الذي ظهر في الأندلس والمغرب منذ عصور متقدمة، واعتبر من أهم مميزات الأدب المغربي والأندلسي» .

ظهر أدب الرحلة كفن مستقل من فنون الأدب المغربي والأندلسي ، ولاحظنا شدة عناية الأدباء في المغرب والأندلس بتدوين الرحلات، ومن أبرزهم الرحالة ابن خلدون حيث «أصبح ماجدَّ من تجاربه في رحلاته الجديدة جزءًا من حياته يجدب

أن يدونه ،وأن يضيفه إلى ماكان قد سجله قبل ففعل ،وعظم حجم الكتاب بما أضافه إليه من جديد الأخبار ،ولم يكن العنوان السالف(رحلة ابن خلدون) الذكر من السعة والمرونة بحيث يشمل هذا الجديد الطارئ ».

مماهو معلوم أن الرحلة نص كبير الحجم ،لما شمل من أخبار وقصص وحكايات ومتفرقات في علوم عديدة واستوعب هذا النص تعدد المضمون وجمالية سرده ، ولذلك نجد أن الأديب الرحالة واسع الاطلاع غزير المعرفة .

3- طرق تدوين الرحلة :

اتبع الرحالة العرب طرائق عدّة في تدوين رحلاتهم يمكن أن نصفها وفق الآتي:

أ-رحل كتبها أصحابها في أثناء الرحلة :سلك العبدري هذه الطريقة.

ب-رحل كتبت من المذكرات التي دونها أصحابها في أثناء الرحلة:مثلما قام به ابن رُشيد الفهري السبتي

ج-رحل دُونت من الذاكرة:فكان الرحالة يقصون مشاهداتهم على الناس عند عودتهم،ويدونون بعضها في ملاحظات ،ومن هذا النوع رحلة ابن بطوطة التي دونها الكاتب ابن جُزي ،وهنا تعددت طرق تدوين الرحلات حسب الظروف التي عاشها الرحالة،والغاية المنشودة من رحلته ،وأيضًا ارتبط تدوين الرحلة بزمن الرحلة ونمط سرد أحداثها».

يعد النوع الأول هو الأشهر ،فالرحالة هو شخص سرد ماشاهده وعاشه وقام بكتابة نص رحله بنفسه، وحصل ذلك عند العبدري وابن خلدون وابن جبير وغيرهم ،وفي الغالب يخضع تدوين النص الرحلي لتقنيات السرد ،وذلك يرتبط بمهارة الرحالة أو كاتب الرحلة في السرد الرحلي، والجدير بالذكر هو أن كتاب ابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا « هو عبارة عن مذكرات شخصية كان يدونها يومًا فيومًا وأطلق عليها اسم التعريفات بابن خلدون » .

ومن دوافع رحلة ابن خلدون الدينية قضاء فريضة الحج فيقول في رحلته «وحملت السفر لقضاء الحج ،وخرجت من القاهرة منصف رمضان (سنة تسع وثمانين وسبعمائة) إلى مرسى الطور بالجانب الشرقي من بحر السويس ، وركبت البحر من هنالك عاشر الفطر ووصلنا إلى الينبع لشهر فوافينا المحمل ،ورافقتهم من هنالك إلى مكة ودخلتها ثاني ذي الحجة ،فقضيت الفريضة في هذه السنة ثم عدت إلى الينبع فأقمت به خمسين ليلة ».

نلاحظ اهتمام ابن خلدون بذكر أدق التفاصيل في رحلته حتى أننا نجده يذكر التواريخ الهجرية والأماكن التي زارها وهنا ابن خلدون انتهج الأسلوب العلمي في سرد رحلته « وقد كان لهذا الرحلات التي بها الأندلسيون في القرن الخامس الهجري دوافع وأغراض شخصية ،وعامة منها الدينية والعلمية والتعليمية والاستكشافية والثقافية ».

كانت للرحلة دوافع عديدة منها الدينية كالحج مثلًا أو العلمية كتحصيل علوم اللغة والأدب والعلوم الشرعية أو الرحلة لغرض الاستكشاف كالرحلة السياحية .

4-شعرية السرد في نص الرحلة :

ترتبط جمالية النص الرحلي بتقنيات السرد فيه، ولذلك نجد اختلاف أساليب الرحالة مع وحدة الموضوع عندهم وفيمايلي سنختار النماذج التالية :

أ-شعرية السرد في رحلة المسعودي :

يعد المسعودي أشهر الرحالة في المشرق العربي ، وله مؤلفات كثيرة في مجال أدب الرحلة .

*** مضمون رحلة المسعودي :**

جمع المسعودي خلاصة رحلاته الكثيرة في أصقاع العالم في« كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ،وهو كتاب في الجغرافية والتاريخ ضمنه المسعودي(ت346هـ) ماكان ذائعًا من العلم في أيامه ، وماخبره بنفسه ،وما اختزنه من تجارب

ومشاهدات في رحلاته،ورحلات المسعودي هي رحلات علمية ابتغاها المسعودي ليدعم بها دراساته في الجغرافية والتاريخ»

كانت رحلات المسعودي في الأساس لغاية علمية محضة ،فهو عالم جغرافيا ، وتضمن كتابه الشهير مروج الذهب ومعادن الجوهر أخبار رحلاته العلمية ،وهو مؤرخ كذلك اهتم بالأحداث التاريخية على نطاق واسع.

*** أسلوب السرد في رحلته :**

سنتناول أسلوب المسعودي من خلال كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"«وقد تجلت سعة ثقافة المسعودي في كتب كثيرة ألفها حول رحلاته ،وأهمها مروج الذهب ومعادن الجوهر«ولاحظنا روايته النابضة بالحياة خاصة في كتابه "مروج الذهب " وسرده القصصي الجذاب ،وأسلوبه الممتع في تضفير الحقيقة بالأسطورة،ومزج الواقع بالخيال ،حتى لتحسب أن كل مايذكره وقائع صحيحة وصادقة ،وسوف يلحظ القارئ في غير عناء أن المسعودي كان يمكن أن يكون أحد كبار قصاصينا وروائيينا،لولا أن البعض في ذلك الزمان كان يرى هو أن شأن القص وضآلة قدر أصحابه ».

ظهر المسعودي في زمن سيادة القاص العربي على أدباء عصره، ولذلك خفت صيته في عصره ،ويعد المسعودي أشهر الرحالة في المشرق العربي ،وكتابه مروج الذهب هو خلاصة لتجاربه وأسفاره الكثيرة ،وأسلوبه في السرد الرحلي«واضح متنوع،يقوده الطبع حينًا،ويشده الصنيع أحيانًا،وكسائر كتب الرحلات ليس فيه دائمًا حقائق راهنة،فقد يشوبه الاضطراب ويفوته التنقيب العلمي،وينقل الخبر مكتفيًا بإسناده إلى الرواة،وكثيرًا ماينقاد المسعودي باستطراداته إلى الانقطاع عن مجرى التاريخ الصحيح» .

اتضح أن أسلوب المسعودي في سرد رحلاته هو أنه أسلوب علمي ركز فيه على النقل الأمين للحقائق،وإن كان الاستطراد عنده قد فوت عليه سمة التسلسل الزمنى للأحداث التاريخية، وفي النهاية هو أديب وليس قاص«فتقوده اللفظة إلى أقوال لاتنتظم والسرد العلمي الخالص،فتختل أمام عينيه وحدة الموضوع ،بيد أن المسعودي يعرف كيف يخلق جو الحادثة المشوق،فتبدو الرواية على يديه تعبيرًا عن العصر الذي يؤرخه،وبذلك يضيف إلى السرد التاريخي الصرف المناخ الملائم له»

وهنا تفتقر رحلة المسعودي إلى عنصر حيوية السرد،وإن المسعودي صاحب ثقافة وعلم واسع ،وتجلى ذلك في نصوصه الرحلية،وحاول سرد بعض الحقائق التاريخية في أسلوب علمي ، ومع توفيره لمناخ قصصي إلا أن استطراده حال دون تماسك نصه،وأسلوب المسعودي لايخضع لتسلسل المنطقي في عرض الأحداث ،ومع ذلك نجده يصوغها في أسلوب مشوق،ومن نماذج أخبار المسعودي في "مروج الذهب ومعادن الجوهر"أورد العديد من الأخبار ، ومنها وصف الدنيا من كلام الإمام علي﵁«أورد المسعودي خبر علي﵁ في قوله:"الدنيا دار صدق لمن صدقها ،ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها،الدنيا مسجد أحباء الله،ومصلى ملائكة الله ،ومهبط وحيه ».

نلاحظ خلو تعبير المسعودي من المحسنات البديعية والصور البلاغية ، فأسلوبه مباشر غايته تقرير الحقائق،ومع ذلك نحتفظ للمسعودي بمكانة في فن الرحلات العربية في المشرق العربي.

ب- شعرية السرد في رحلة ابن جبير :

حفل الأدب الأندلسي بنوابغ في شتى الفنون ومنها فن الرحلة الذي يتصدر ابن جبير الكتابة فيه ،فرحلة ابن جبير مصدر هام لكتب الرحلات في المغرب والمشرق.

*** محتوى رحلة ابن جبير :**

ألف ابن جبير الأندلسي كتابه بعنوان"رحلة ابن جبير" «ودون ابن جبير رحلته على شكل مذكرات يومية استعمل فيها التاريخين الهجري والميلادي».

اتبع ابن جبير في رحلته طريقة تدوين المذكرات اليومية،واستعماله للتاريخين الهجري والميلادي دَّل على دقته العلمية في تحديد الأحداث وفق زمن محدد،وكذلك سعة اطلاعه في الثقافتين العربية والغربية «ورحلة ابن جبير تقص ماشاهده في طريقه إلى حجه وعودته منه،وهي مكتوبة بشكل مذكراته يومية،والرحلة مكتوبة بلغة بسيطة ملائمة تمامًا لموضوعها ،وطريقته في السرد محببة إلى النفس وهو يصف مايشاهده وصفًا دقيقًا ،وقد عنى بالحديث عن المساجد في كل بلدة ألم بها ،وترك نفسه على سجيتها فلم يتكلف في عبارة ولافي فكرة ،وأدى ماأدخله من عواطف وأحاسيس إزاء بعض الحوادث والمواقف أداء صادقًا صريحًا ».

تأثر الرحالة ابن جبير بالأماكن التي زارها، وظهرت عاطفته في تعليقه على بعض الأحداث التي شهدها ،ولاحظنا أن ابن جبير بارع في الوصف البلدان والمدن ،وظهر الصدق الفني في تدوينه لرحلته .

*** أسلوب ابن جبير في سرد رحلته :**

ابن جبير هو ابن المدرسة الأندلسية في الكتابة الأدبية ،وظهرت خصائص تلك المدرسة في رحلته «فابن جبير دقيق الملاحظة ،سهل العبارة،واضح الأسلوب،يترك قلمه على سجيته في معظم أجزاء الرحلة، ولايلتفت إلى الصنعة إلا في أماكن قليلة عندما يصف مدينة ينشرح فيها ، فيعني بالسجع والتوازن وتزيين الجمل بالمحسنات .

لقد وصل ابن جبير بأدب الرحلة إلى قريب من ذروته ،وأضاف إلى فن الرحلة صفحات من أجمل مافيه ،وأغزرها مادّة وأقربها إلى روح العلم وأصدقها ».

اتضح أن أسلوب ابن جبير سهل مسترسل ،اعتني بالمحسنات البديعية ،وخصوصًا السجع ،وابن جبير بارع في وصف الأماكن ،ولذلك لدقة الملاحظة ، ومما ورد في رحلة ابن جبير في وصف مدينة الموصل قوله :« هذه المدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة ،قد طالت صحبتها الزمن ،فأخذت أهبة استعدادها لحوادثها الفِتن ،قد كادت أبراجُها تلتقي انتظامًا لقرب مسافة بعضها من بعض».

نلاحظ توظيف بعض المحسنات البديعية عند ابن جبير في وصفه لشوارع مدينة الموصل ،مع سهولة اللغة واسترسالها وهذا الأمر تكرر في وصف أماكن أخرى في رحلته، وتعد رحلة ابن جبير على قدر كبير من الأهمية عند للمؤرخين والجغرافيين « على أن الذي يقلل من جمال هذه الرحلة وروعتها كنص أدبي هو حرص ابن جبير على أن يصف لنا الوقائع والأحوال من الخارج في أغلب الأحيان وقليلًا مايتناول المشاعر والأحاسيس،إذ هو يمسها هينًا ،وكأنها لاتدخل في حسابه».

ومن نماذج الوصف عند ابن جبير ماورد في رحلته « ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرام كالبُرج المُشيد ،وله التنزيه الأعلى ، وحمام الحرم لاتُحصى كثرة ،وهي من الأمن بحيث يُضرب بها المثل».

وصف ابن جبير الكعبة الشريفة في مكة المكرمة ،و ملاحظ هذا الوصف الدقيق والمشوق الذي يستمل المتلقي لزيارة البقاع المقدسة .

***سمات رحلة ابن جبير :**

يعد ابن جبير هو من أعظم الرحالة العرب ،فله قصب السبق في تدوين رحلته بأسلوب أدبي «وتتميز "رحلة ابن جبير"من سواها من الرحلات بأنها أشبه بيوميات سفر صاغها ابن جبير في أسلوب بارع ،صوّر فيها بكلام سهل بسيط الأحاسيس ، التي اعتلجت في نفسه في المواضع التي زارها أو عند مشاهداته الآثار التي رآها فجاءت رحلته صفة التنوع والشمول التي تروعك بما فيها من ميل إلى التدقيق والإحصاء والتجربة والتنظيم والمقدرة على منح المرئيات إطار الحياة والواقع ».

نلاحظ أن سرد ابن جبير تمتع باسترسال في سرد الوقائع مع ميل نحو التحديد الدقيق للوقائع ظهر ذلك من خلال وصفها الدقيق، وربطها بعنصري الزمان والمكان،واكتسبت رحلة ابن جبير طابع الشمولية والتنوع في المواضيع ،وكان له من التتبع والرصد والإحصاء في رحلته ماكان للعلماء في مجال العلوم الطبيعية ،ومنه نستطيع القول بأن أسلوب ابن جبير في سرد رحلته هو علمي متأدب .

ج- شعرية السرد في رحلة ابن بطوطة :

نالت رحلة ابن بطوطة شهرة واسعة في المشرق والمغرب العربيين ،بل وذاع صيته حتى في الغرب ،وذلك لأن تلك الرحلة جمعت فنيات أدبية ،وقيمة علمية وتاريخية جعلتها جديرة بالاهتمام ،وهو ما سنحاول الكشف عنه.

***مضمون رحلة ابن بطوطة:**

تندرج رحلة ابن بطوطة ضمن السرد الرحلي ،فقد تضمنت حكايات «وقصص أخرى ونوادر كثيرة الواحدة بعد الأخرى في مئات الصفحات ،فرحلة ابن بطوطة رحلة في عادات الناس وتقاليدهم ،وهو يصف لك الطعام وكيف يصنعونه والشراب وكيف يعصرونه».

تضمن نص رحلة ابن بطوطة مضامين مختلفة، ففيها الاجتماعية الخاصة بعادات وتقاليد الشعوب التي زارها،وطرق عيشهم وقد جمع ابن بطوطة شتات من مواضيع مختلفة اجتماعية وأدبية ودينية وسياسية وتاريخية «ولابن بطوطة كتاب تحفة النظار"وفيه خبر رحلاته،وقد أبدى فيه دقة في الملاحظة ،ومقدرة على المراقبة واتساع في الآفاق واستقلال في الحكم مايحمل على الإعجاب والإكثار من الغرائب..وهو يروي مايروي من سذاجة وفكاهة في لغة سهلة تنحط أحيانًا إلى الركاكة ».

أظهر ابن بطوطة براعة فائقة في رصد مشاهد وأحداث ارتبطت بالبلدان التي زارها ،ووجود عناصر مثل الغرابة والفكاهة في رحلته زادها تشويقًا للقراء .

*** أسلوب السرد في رحلة ابن بطوطة :**

جُمعت رحلة ابن بطوطة في كتاب تحت عنوان" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ونقصد بالرحلة هنا « بما قصه الرحالة"ابن بطوطة" وبما أضاف المحرر (ابن جزي)».

ومنه فنص الرحلة عند ابن بطوطة حمل مضامين هي خلاصة تجاربه أثناء الرحلة مع الصياغة الفنية لها عند ابن جزي « وابن بطوطة لم يُمل حديث الرحلة على ابن جزي كما يظن ،بل قام بتقييد رحلته بنفسه ،ثم تولى ابن جزي اختصار هذا التقييد ووضعه في أسلوب جيد ؛لأن ابن بطوطة ربما يكون قد أطال في ذكر التفاصيل ،فكان لابد من اختصار كلامه والغالب أيضًا أنه-ابن بطوطة – لم يكن بصاحب أسلوب حسن ،فاحتاج الأمر إلى من يصوغ الرحلة في أسلوب أدبي وهذا هو الذي فعله ابن جزي ،وهو عمل ليس باليسير ».

دُونت رحلة ابن بطوطة من ذاكرته التي أملاها على الوزير ابن جزي ،ونحن هنا نتكلم عن أسلوبين في تدوين الرحلة،واحد خاص بابن بطوطة والآخر خاص ابن جزي« وفي كثير من الأحيان يضيف ابن جزي فقرات من عنده،وكان ابن بطوطة ينتقد أيضًا،وأجمل صفحات هذه الرحلة ماكتبه ابن بطوطة عن نفسه ،عن عذابه هو عندما وقع في الأسر،هنا فقط يتحول ابن بطوطة إلى إنسان رقيق بليغ».

استطاع ابن جزي أن يرتفع بنص الرحلة إلى مستوى أدبي رفيع ،وقام بعملية تنقيح وتصحيح، وإعادة النظر في سرد بعض الأحداث ماجعل إخراج نص رحلة ابن بطوطة في أسلوب جيد ، وظهرت بلاغة ابن بطوطة في سرده لحكاية وقوعه في الأسر « ولم يترك ابن بطوطة بلدًا نزل بها إلا وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها وقضاتها ،وبذلك كانت رحلته معرضًا

لحياة الأمم والأقاليم،وماتزخر به الرحلة به من أخبار وحكايات غريبة تطبعها بطابع الأسطورة،وتعد رحلات ابن بطوطة متعة حقيقية ،فكلها حكايات ونوادر وخرافات سمعها وصدقها ،وأجمل صفحات هذه الرحلة ماكتبه ابن بطوطة عن نفسه ».

تحدث ابن بطوطة عن حياة شعوب مختلفة ،ورحلته هي بمثابة السفر عبر الزمن بدون تأشيرة لبلدان كانت بعيدة وصعبة المنال عند الكثير من معاصريه ، وقد سجل ابن بطوطة تفاصيل رحلته الطويلة من ذاكرته«وهو دقيق الملاحظة بارع في وصف ماشاهده ورواية ماسمعه، وإن لم يقف مما رواه موقف الناقد ،فهو جامع أخبار وليس ناقدًا وحرص ابن بطوطة على تأدية المعاني ظهر في ابتعاده عن الاعتناء بزخرفة الأسلوب وتنميقه على حساب الفكرة،إلا أنه يلجأ أحيانًا إلى تحسين الكلام باختيار عباراته،وتزيينها ببعض السّجعات، التي تأتيه عفو الخاطر دون قصد،وهنا نشير إلى أن مايهم في الرحلة هو أسلوب صياغة مضامينها ،وكيفية تلقيها من طرف جمهور القراء، وقدحاول الوزير ابن جزي جمع ما أملاه ابن بطوطة من قصص في وحدة متماسكة متناسقة جلية واضحة في الكتاب،ويتمثل تدخله من ناحية أخرى في إضافته ، وفي إثباته أبياتًا من الشعر له أو لغيره يستشهد بها،وحاول إثبات اطلاعه وقدرته الأدبية،وتطعيمه نص الرحلة ليكسب بهذا التزويق كلام صاحبها حيوية أكثر تقربه إلى النصوص الأدبية».

تتمتع ابن بطوطة بذاكرة حفظ قوية للأخبار والأحداث والقصص والحكايات ،ومايؤثر على ابن حزي هو العمل على تماسك قصص رحلة ابن بطوطة ،ماجعل السرد عنده يسير في خط مستمر، واستشهاد ابن جزي بالشعر هو سمة من سمات السرد العربي القديم ،يتداخل النثر القصصي مع الشعر، وفي رحلة ابن بطوطة نتحدث عن أسلوب ابن جزئ ،الذي قام بكتابة الرحلة بأسلوبه البليغ مما أكسب نص الرحلة طابعًا أدبيًا راقيًا بإضافاته وتنقيحه « ولاحظنا كثرة العناوين في الرحلة وعدم ترتيب سردها أو تنسيقها أمام الفيض الزاخر من المادة، التي يقدمها الرحالة ، وأمام تنوع هذه المادة وعدم ترابطها ،كما أن سرده حوادث هذه الرحلة لم تكن متمثلًا في ذهنه بهدف إخراجها كتابًا متكامل الجوانب ،بدليل تقطع الحكايات ، وعدم اتصال الأحداث فيها باستمرار، ولاحظنا غياب الترتيب في سرد الحكاية وتنسيقها على نحو جيد، وإذا أُخذ على ابن بطوطة اضطراب السرد في تسلسل الحوادث والأزمان،فلاننسى أنه تجشم الأسفار الشاقة».

وأما بخصوص عدم ترتيب السرد ، فهنا نعذر ابن بطوطة على ذلك ،فالمادة المعرفية الضخمة التي رواها ابن بطوطة يصعُب ترتيبها وفق نسق سردي منظم،وهناك مآخذ كثيرة على رحلة ابن بطوطة منها عدم الترابط والتسلسل في الأحداث وزمانها ،وذلك رجع إلى كثرة الأماكن التي زارها ،وكثرة الأحداث التي عاشها ماأدى إلى نسيان بعضها ،وهو خطأ غير مقصود من ابن بطوطة خصوصًا وأن ابن بطوطة قد «سجل تفاصيل هذه الرحلات الطويلة من ذاكرته ،فلم يكن يدون أحداثها كيوميات ،ولكن بالرغم من اعتماده على ذاكرته لم تخنه ذاكرته ،وابن بطوطة دقيق الملاحظة ،بارع في وصف ماشاهده ،وراوية ماسمعه ،وإن لم يقف مما رواه موقف الناقد ،فهو جامع أخبار ،وليس ناقدًا،ولذلك كان موقف الكثيرين من أخبار رحلته موقف المستغرب،ودفع ذلك البعض إلى تكذيبه».

إن سعة معارف ابن بطوطة وتنوعها واختلافها في بعض الأحيان أدى لاختلاط في رواية الأحداث في رحلته وظهرت جهود ابن جزي في تدارك النقائص في نص الرحلة وصياغتها صياغة أدبية ،وقد شكك النقاد في صحة بعض مرويات ابن بطوطة ، وفي النهاية هو راوية أخبار وليس ناقدًا ممحصًا لتلك الأخبار، التي هي ضرب من الخرافة،ومن النقاد نذكر أن قد «شكك ابن خلدون في صحة مرويات رحلة ابن بطوطة معلقًا عليها ..ويبلغ ابن خلدون مبلغ المتلقي المنكر لهذه الأحاديث».

هنا نجد أن أسلوب ابن خلدون كمحقق طغى على جُل اهتماماته في الأدب، ويبقى لابن خلدون رأيه الشخصي ، ومع ذلك امتاز«أسلوب ابن بطوطة بالبساطة وانسيابية السرد،وتخلو عباراته من السجع والجناس، وأشكال البديع والبيان إلا في

المقدمة، ويقل كثيرًا بعد ذلك، ولابن بطوطة لذة خاصة في ذكر الأشخاص الذين عرفهم،ويسعى دائمًا للتحدث عنهم،وتجلى الحس القصصي عند ابن بطوطة بوضوح في سرد الأحداث واختيارها، وهذا ماجعل من رحلته الأكثر تشويقًا لدى القراء، واثبت من خلالها تفوق الأدباء المغاربة على المشارقة في أدب الرحلة».

إن القارئ لرحلة ابن بطوطة يحس بنوع من الألفة تجاه الأشخاص الذين تحدث عنهم ابن بطوطة ،وحتى الأماكن التي زارها ،وذلك أن ابن بطوطة ينقل إلينا أحاسيسه بصدق ،وتعد رحلة ابن بطوطة على قدر كبير من التشويق والمتعة رُغم قلة المحسنات البديعية فيها .

لاحظ النقاد تفوق الأدباء المغاربة على أدباء المشرق العربي في الجانب السردي من الرحلة ،وفي عدد الرحلات وأسلوب كتابتها القريب من الأدب،واتصف أسلوب ابن بطوطة بانسيابية في السرد مع خلو الرحلة من البديع وهو أمر عادي لكون الرحلة نص نثري غايته الإمتاع ،واضح تأثر ابن بطوطة بابن جبير في قوله «ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنًا وتتقدمها جمالًا،وكل وصف،وإن طال،فهو قاصر عن محاسنها ولا أبدع مما قاله أبو الحسين بابن جبير رحمه الله تعالى ».

تأثر ابن بطوطة بأسلوب ابن جبير في وصف المدن ، وهاهو ابن بطوطة يُشيد بوصف ابن جبير لمدينة دمشق «إن من يقرأ رحلة "ابن بطوطة سوف يلاحظ أن بها بعض النصوص التي سبق ورودها في رحلة ابن جبير ،وبخاصة فيما يتعلق بوصف المدن».

ورد الكثير من التشابه بين رحلتي ابن بطوطة وابن جبير في وصف المدن،وكذلك نجد تحرر ابن بطوطة من الافتتاحية الموجودة في الحكايات ،ونجده يسرد حكاياته وقصصه بطريقة عفوية،وعلى سبيل المثال حكاية القاضي فخر الدين الريغي «يُذكر أن جد القاضي فخر الدين الريغي ،واشتغل بطلب العلم ثم رحل إلى الحجاز فوصل الإسكندرية بالعشي...الخ ».

استهل ابن بطوطة الحكاية بعبارة "يُذكر " والملاحظ هو قصر حكايات ابن بطوطة؛ لأن موضوع كتابه ليس فقط سرد القصص والحكايات بل رواية معارف أخرى«وتحقق لابن بطوطة في رحلته الجانب السياحي ،والروحي والعلمي وكان يولي اهتمامه بالجانب العجائبي ،والاجتماعي ،فكان شديد الاهتمام بالناس وعاداتهم وتقاليدهم، ومن الموضوعات الاجتماعية التي أعجب بها ابن بطوطة ،ومن الجوانب الاجتماعية التي أثارت استغرابه في الهند والصين إحراق الموتى».

ومازاد من عنصر التشويق لرحلة ابن بطوطة هو إضفاء طابع الغرابة والعجب مثل سرده لقصة إحراق الموتى في الهند والصين ،وكان سرده للمواضيع الاجتماعية عامل من تحقيق الألفة بين نصه الرحلي والمتلقين له، وأسلوب تدوين الرحلة لايخلو من الجوانب الفنية «وكان ابن بطوطة عمومًا حريصًا على تأدية المعاني ،فابتعد عن الاعتناء بزخرفته الأسلوب ،وتنميقه على حساب الفكرة ،إلا أنه كان يلجأ أحيانًا إلى تحسين الكلام باختيار عبارات هوتزيينها ببعض السجعات التي تأتيه عفو الخاطر دون قصد ،فالكاتب يعني باختيار ألفاظه وتنقيح عباراته ،من الانسياق وراء الأسجاع المتكلفة ، وسرعان مايتحرر من السجع ،ويعود إلى الأسلوب المرسل الذي يتَّسم بالعفوية والوضوح ».

فضَّل ابن بطوطة الاهتمام بالمضامين على حساب الشكل ،ولذلك نجده يزهد في تنميق الأسلوب،واتضح لنا أن ابن بطوطة عفوي في سرده ، وإهماله لبعض المحسنات البديعية مثل السجع راجع لثراء مضامين رحلته وقوتها فعمد ابن بطوطة إلى الاسترسال في السرد وتصدير المضمون على حساب الشكل .

5-أهمية نص الرحلة من الناحية الأدبية :

ظهرت القيمة الأدبية لفن الرحلة في شعرية السرد القصصي، وفي أسلوب كتابة نص الرحلة ، وتكمن القيمة الأدبية للرحلات في ماتعرض فيه موادها من أساليب ترتفع إلى عالم الأديب،وترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني،وإذا كان أبرز مايميز أدب الرحلات تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره؛ فإن أبرز مايميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى ، والسارد الرحالة وهو ينتج خطابه،يضع في الاعتبار الجسر التواصلي الذي يجب أن يربطه غموض والتباس يخضر بذاكرة السارد، وهو يؤسس مسراته السردية».

يعد فن الرحلة جسر التواصل بين الشعوب والثقافات،والقضاء على الحدود،ونص الرحلة هو مادة علمية وإخبارية هامة تساعد على تثقيف المتلقي ، وإمتاعه في نفس الوقت «ومساحة الخيال في كتب الرحلة قليلة ،حيث إن هذا اللون من الكتابة يعتمد في الأساس على الواقع».

مماهو معلوم أن الرحلة هي عبارة عن تجميع للأحداث واقعية «وأما أسلوب الكتابة ،واللغة التي يتوسل بها كاتب الرحلة فإنه قد يُضيف إليها قيمة أدبية ،وبخاصة عندما يحتفل بالأساطير والخرافات ،وبعض المحسنات البلاغية ،وجمال وحسن التعبير ،وارتقاء الوصف ،وبلوغه حدًا كبيرًا من الدقة ،علاوة ماقد يستعين به من أسلوب قصصي ،سلس مشرق ،وهذا هو الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي أيًا ماكان فإن كتب الرحلة تتسم بعدد من السمات المشتركة مثل: الشمول والتنوع...وتعنى بالوصف الدقيق،والتصوير الأمين ،والنقل الصادق ،يدافع تحري الدقة تحريًا علميًا موضوعيًا».

ظهرت شعرية السرد الرحلي في إضفاء الطابع القصصي على سرد الأخبار بل ونجد فيها قصص وحكايات موجزة في غالب الأحيان ،وكذلك اتصف النص الرحلي بالتنوع في المضامين والإحاطة الشاملة بها«وتساعدنا نصوص الرحلات المبكرة التي خلفها لنا عصر التدوين على استجلاء مكونات العجائبي في هذه الرحلات ، ومع أن العجائبي في نص الرحلة كثيرًا مايرد في نسق عقائدي إسلامي متشابهًا بذلك مع نصوص الكرامات الصوفية ».

وماجمع النصوص الرحلية هو طابع التنوع والشمولية ،وإضفاء جو من الخرافة والأساطير في بعض النصوص وهومايبتغيه القراء على مر العصور،ولاننسى أن الرحلة تبين مرجعية الرحالة ووجهة نظرة وتجاربه الشخصية وعقيدته الدينية

ومنه إذن نصل إلى بأن الغاية التي ينشدها الدارس من فن الرحلات الأدبية هي الكشف عن جمالية السرد القصصي في نص الرحلة ، والأسلوب الأدبي الذي دُونت من خلاله، ولاحظنا اختلاف أساليب تدوين الرحلات نظرًا للمنهج الذي يتبعه الرحالة نفسه، وتكمن أهمية الرحلة الأدبية في كون نص الرحلة تضمن خصائص فنية خاصة مع سيادة طابع السرد المشوق.

قائمة المصادر والمراجع :

أولًا – قائمة المصادر الأدبية واللغوية العربية :

1-المعاجم اللغوية:

1. ابن منظور: لسان العرب،،مج4

2 – المصنفات الأدبية التراثية:

1. ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،
2. ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة،تح: كرم البستاني ،

3. ابن جبير: رحلة ابن جبير،
4. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون "العبر وديوان المبتدأ والخبر" ، مراجعة: أبو صيب الكرمي ،
5. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ،تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ،

ثانيًا- قائمة الكتب العربية الحديثة:

1-قائمة المعاجم والقواميس العربية الحديثة:

1. سعيد علوش: معجم مصطلحات النقد الأدبي المعاصر

2-قائمة المراجع العربية الحديثة :

1. أحمد أبو سعد: أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي دراسة ومختارات،
2. أنيس منصور:أعجب الرحلات في التاريخ ، ج1،
3. جورج غريب :أدب الرحلة تاريخه وأعلامه ،
4. حسين محمد فهيم: أدب الرحلات،
5. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب ،
6. حنا الفاخوري :الجامع في تاريخ الأدب العربي "الأدب القديم" ،
7. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب ،
8. حسين مؤنس :ابن بطوطة ورحلاته ،تحقيق ودراسة وتحليل
9. سعيد جبار:من السردية إلى التخيلية بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي،
10. سيد حامد النساج : مشوار كتب الرحلة قديمًا وحديثًا،
11. شوقي ضيف: الرحلات ،
12. ضياء الكعبي: السرد العربي القديم "الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل "
13. عبد الحليم كبوط: محاضرات في الأدب الأندلسي والمملوكيوالعثماني ،
14. علي إبراهيم كردي:أدب الرِّحل في المغرب والأندلس،
15. فؤاد قنديل :أدب الرحلة ،في التراث العربي ،
16. محمد بن تاويت الطنجي : رحلة ابن خلدون ،

ثالثًا- قائمة المصادر والمراجع الغربية :

1- المعاجم والقواميس الغربية الحديثة :

1. بول آرون وآخرون:معجم المصطلحات الأدبية، ترجمة:محمد حمود،